

تعرف على تاريخ رفح: من الواحة إلى الاستراحة

الثلاثاء 20 فبراير 2024 10:11 م

من ساحة الصراع القديمة إلى نقطة توقف للمسافرين في القرن الحادي عشر، يلقي "موقع ميدل إيست آي" نظرة على تاريخ رفح الذي يعود إلى 3000 عام؛ حيث تتعرض مدينة رفح، أقصى جنوب قطاع غزة، للحصار والهجمات الإسرائيلية المستمرة قبل 7 أكتوبر، كانت المدينة، التي تبلغ مساحتها 64 كيلومترًا مربعًا فقط، مكتظة بالسكان ومدمرة بسبب الفقر والظروف المعيشية المتدنية بسبب الحصار الإسرائيلي المستمر منذ 17 عامًا. ومنذ ذلك الحين، وبعد أن قامت إسرائيل بطرد الفلسطينيين قسراً من شمال ووسط غزة باتجاه الجنوب، تضاعف عدد سكان رفح خمس مرات في غضون أشهر ليصل إلى حوالي 1.5 مليون نسمة. ويعيش سكان رفح، الذين يمتد تاريخهم إلى ثلاثة آلاف سنة، الآن في ما يشبه مدينة الخيام المكتظة والمؤقتة. ويسكن هذه المساكن المؤقتة لاجئون فلسطينيون نزحوا عدة مرات في حياتهم. وفي وقت سابق من هذا الأسبوع، قُتل ما لا يقل عن 67 فلسطينيًا بعد أن قصفت القوات الجوية الإسرائيلية 14 منزلاً وثلاثة مساجد في المدينة. والآن، وفقاً لرئيس الوزراء الإسرائيلي "بنيامين نتنياهو"، فإن الأمر مجرد مسألة وقت قبل أن تشن إسرائيل غزواً برياً للمدينة، على الرغم من الاحتجاجات الدولية. يلقي موقع "ميدل إيست آي" نظرة على تاريخ رفح، منذ أن تم تبادلها بين مختلف الإمبراطوريات والسلالات القديمة والعصور الوسطى، حتى بدأ القرار البريطاني العثماني المشترك عملية تقسيم المدينة إلى كيانين منفصلين.

تاريخها يمتد لأكثر من 3 آلاف عام

ويعتقد أن رفح كانت مأهولة بالسكان منذ أكثر من 3 آلاف عام، ويظهر اسمها في النقوش المصرية القديمة التي يعود تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. لقد بدأت كمستوطنة نشأت حول واحة تربط شبه جزيرة سيناء بغزة. أطلق المصريون القدماء على المدينة اسم روبيهوا، وعند اليونانيين والرومان اسم رافيا، وعند بني إسرائيل اسم رافيا، وعند العرب رفح. وكانت موقع معركة رافيا عام 217 قبل الميلاد، وهي واحدة من أكبر المعارك في التاريخ القديم، والتي شارك فيها حوالي 150 ألف مقاتل وما يقرب من 200 فيل. كان الصراع بين المملكة البطلمية والإمبراطورية السلوقية على منطقة سوريا الجوفاء، التي تشكل جزءاً من سوريا ولبنان المعاصرتين. وبعد بضعة عقود، في عام 193 قبل الميلاد، كانت رافيا هي المكان الذي تزوجت فيه الأميرة السلوقية "كليوباترا" الأولى من بطليموس الخامس. فيما بعد حكمت رفح لفترة وجيزة من قبل مملكة الحشمونائيم، بعد أن غزاها الملك اليهودي الهلنستي "ياناي ألكسندر". ثم سقطت في أيدي الرومان لعدة سبعة قرون تقريباً. في عام 635، في السنوات الأولى للدين الإسلامي، استولت الجيوش التابعة للخلافة الراشدة على المدينة من البيزنطيين. ثم بقيت في أيدي العديد من الحكام والسلالات الإسلامية، بما في ذلك الأمويون والعباسيون والعثمانيون فيما بعد. خلال القرون الأولى من الحكم الإسلامي، عرفت رفح بأنها محطة استراحة للتجار المسافرين. وكان بها فنادق ومتاجر وسوق ومسجد، بحسب مؤرخي القرن الحادي عشر. وازدهرت المجتمعات اليهودية في رفح في نقاط مختلفة بين القرنين التاسع والثاني عشر، لكن معظمهم غادروا في النهاية إلى عسقلان المجاورة، التي تقع الآن في فلسطين المحتلة.

مدينة مقسمة

وكانت تحت الحكم العثماني في عام 1906 عندما أصبحت رفح، لأول مرة، مدينة مقسمة بين منطقتين. تم رسم خط بين مصر التي كانت تحت الحكم البريطاني آنذاك وفلسطين العثمانية، والذي كان يمر عبر مدينة رفح. وبعد عقد من الزمن، خلال الثورة العربية وسقوط الإمبراطورية العثمانية، سقطت رفح في أيدي البريطانيين في عام 1917. ووفقاً لإحصائيات الانتداب البريطاني في فلسطين، كان هناك 599 شخصاً في رفح عام 1922، وارتفع إلى 2220 بحلول عام 1945. ويُعتقد أن جميع هؤلاء السكان كانوا من المسلمين. خلال نكبة عام 1948، تم تهجير 750 ألف فلسطيني قسراً من مدنهم وبلداتهم على يد الميليشيات الصهيونية لإفساح المجال أمام قيام دولة إسرائيل التي تم إنشاؤها حديثاً. وفي تلك المرحلة، أصبح قطاع غزة تحت السيطرة المصرية، وظل تقسيم رفح لعام 1906 قائماً. وفي عام 1949، تم إنشاء مخيم رفح للاجئين لإيواء اللاجئين الفلسطينيين الذين نزحوا خلال النكبة. وحتى اليوم، هناك 133326 لاجئاً مسجلين رسمياً في المخيم من قبل وكالة الأمم المتحدة للاجئين الفلسطينيين (الأونروا). ومن المرجح أن يكون العدد الفعلي لسكان المخيم أعلى من ذلك بكثير. ويمتد المخيم على مساحة 1.2 كيلومتر مربع فقط، وهو أحد أكثر المناطق كثافة سكانية في الأراضي الفلسطينية المحتلة. وتضم 18 مدرسة تديرها الأمم المتحدة ومرفقين صحيين ومركزين للخدمات الاجتماعية. وكان لحرب الشرق الأوسط عام 1967 أصداء هامة أخرى على رفح. هزمت إسرائيل الجيوش العربية واحتلت بعد ذلك قطاع غزة والضفة الغربية والقدس الشرقية ومرتفعات الجولان السورية وسيناء المصرية. بعد عام 1967، سقطت حدود رفح وتم إعادة ربط الناس على كلا الجانبين لمدة 15 عامًا. خلال تلك الفترة، كانت الحدود بين مصر والأراضي التي تسيطر عليها إسرائيل هي قناة السويس.

في أعقاب معاهدة السلام الموقعة بين إسرائيل ومصر في مارس 1979، انسحبت القوات الإسرائيلية والمستوطنون من سيناء في عام 1982. وبحسب ما ورد، تم دفع مبلغ 500 ألف دولار لكل أسرة لنحو 1400 عائلة من المستوطنين الإسرائيليين لمغادرة سيناء في تلك اللحظة تم إقامة حدود رفح مرة أخرى، وبقيت في مكانها منذ ذلك الحين وقد تم رسمها تقريبًا على نفس خطوط حدود عام 1906. اخترقت الحدود الشوارع والأحياء السكنية والأراضي الزراعية، مما ترك الكثيرين أمام قرار صعب: إما العيش في مصر أو في قطاع غزة الذي تحتله إسرائيل. وفي إحدى الحكايات من ذلك الوقت، كان لرئيس بلدية رفح المحلي زوجتان، إحداهما تعيش على الجانب المصري من الحدود والأخرى على جانب غزة. وقال صيدلي من رفح لصحيفة سيدني مورنينج هيرالد في مارس 1982: "خلال أربع حروب لم يحدث أي دمار في رفح ولكن مع السلام سيحدث الضرر والدمار إنه أمر صعب للغاية". ومنذ ذلك الحين، لم تتمكن العديد من العائلات التي انقسمت بسبب إعادة رسم الحدود من زيارة بعضها البعض رفح هي واحدة من عدد قليل من المدن، مثل القدس ونيقوسيا وروما، مقسمة بين دول أو مناطق مختلفة.

معبر رفح

وفي وقت لاحق من عام 1982، تم افتتاح معبر رفح كنقطة دخول وخروج رسمية بين مصر وغزة التي تسيطر عليها إسرائيل في عام 1994، وبعد عدة جولات من المفاوضات، أصبح معبر رفح تحت شكل من أشكال السيطرة المشتركة بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية واحتفظت السلطات الإسرائيلية بمعظم السيطرة الأمنية، وكان بإمكانها منع أي فرد من الوصول ولكن في يناير 2001، أثناء الانتفاضة الثانية، سيطرت إسرائيل بالكامل على المعبر وفي وقت لاحق من ذلك العام، دمرت القوات الإسرائيلية أيضًا مطار ياسر عرفات الدولي في غزة، وهو المطار الوحيد في فلسطين، والذي يقع بالقرب من رفح وفي سبتمبر 2005، سحبت إسرائيل قواتها ومستوطنيها من غزة كجزء من "خطة فك الارتباط". خلال ذلك الشهر، لمدة سبعة أيام تقريبًا، ظهرت ثغرات على الحدود مما سمح لآلاف الأشخاص على الجانبين الفلسطيني والمصري من حدود رفح بالالتقاء لفترة وجيزة. زحف رجل مسن عبر صدع في الجدار، وسقط على ركبتيه وقبل الأرض بعد أن لمس الأراضي الفلسطينية لأول مرة منذ أكثر من ثلاثة عقود، بحسب تقرير لصحيفة الأهرام. كما غادر عشرات الفلسطينيين غزة للمرة الأولى في حياتهم، وقاموا برحلات يومية حول سيناء وبعد شهرين عاد معبر رفح إلى السيطرة المشتركة بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية حتى يونيو 2007، عندما سيطرت حماس على قطاع غزة ومنذ ذلك الحين، أصبح المعبر خاضعًا لسيطرة مصر وحماس، ولا يُفتح إلا بشكل متقطع والمعبر هو البوابة الوحيدة التي لا تسيطر عليها إسرائيل بشكل مباشر للدخول إلى غزة والخروج منها.

مصر تدمر جانبها من رفح

هناك تاريخ طويل من الأنفاق التي يستخدمها المهربون لربط مدينتي رفح في مصر وفلسطين وفي مناسبات متعددة، غمرت مصر الأنفاق بمياه البحر والصرف الصحي، وأنشأت حاجزًا تحت الأرض لوقف التدفق المزعوم للأسلحة والمقاتلين والموارد بين سيناء وجنوب غزة. وبالإضافة إلى تدمير الأنفاق، قامت مصر، منذ عام 2014، بتسوية جزء كبير من مدينة رفح بالأرض. وفي أعقاب الهجمات البارزة التي شنها متشددون إسلاميون متمركزون في سيناء في شبه الجزيرة، والتي أسفرت عن مقتل 33 من أفراد الأمن المصريين في أكتوبر 2014، بدأ الرئيس "عبد الفتاح السيسي" عملية هدم المدينة بأكملها لأسباب أمنية وقامت السلطات المصرية بتجريف 685 هكتار من الأراضي الزراعية المزروعة ودمرت 800 منزل أثناء إنشاء منطقة عازلة بين سيناء وغزة وتقع مدينة رفح المصرية بأكملها، التي يسكنها 78 ألف نسمة، داخل المنطقة العازلة وقد تم تدمير المدينة التاريخية ومعظم قراها ولم تبق إلا قرية واحدة هي البرث، وسكانها متحالفون مع الجيش المصري وتقوم مصر حاليًا ببناء مدينة رفح الجديدة تمامًا.

دمرتها الحروب الإسرائيلية

وفي الوقت نفسه، على الجانب الفلسطيني، تعرضت مدينة رفح للدمار بسبب الصراع في السنوات الأخيرة. في أغسطس 2009، في ما أطلق عليه اسم "معركة رفح"، أدى القتال بين حماس وجماعة مسلحة قصيرة العمر تُعرف باسم "جند أنصار الله" إلى مقتل 22 شخصًا وأنشأت الجماعة إمارة رفح الإسلامية، والتي استمرت يومًا واحدًا – 14 أغسطس 2009 – قبل أن تدمرها حماس. كما تعرضت رفح أيضًا للقصف الإسرائيلي خلال الحروب المتعددة على غزة، بما في ذلك في الأعوام 2009 و2012 و2014 والصراع الحالي وخلال حرب عام 2014، التي كانت بمثابة الغزو البري الأخير لغزة قبل الصراع الحالي، شنت إسرائيل هجومًا ضخمًا على رفح في 1 أغسطس 2014، بعد اختفاء جندي إسرائيلي، شنت إسرائيل غارات جوية وأطلقت 1000 قذيفة مدفعية على المدينة كما دمرت الدبابات والجرافات عشرات المنازل وشهد هذا الهجوم مقتل 75 مدنيًا في يوم واحد، من بينهم 24 طفلًا وبحسب ما ورد كان الهجوم على رفح مثالًا على استخدام "توجيه هانبيال"، وهو قاعدة اشتباك محلية إسرائيلية تنص على أنه إذا تم اختطاف جندي، فيمكنه تخفيف الاحتياطات والتصرف بشكل أكثر عدوانية. وفي الحرب الحالية على غزة، وعلى الرغم من إعلان إسرائيل مدينة رفح منطقة آمنة في العام الماضي، إلا أن المدينة تعرضت لقصف إسرائيلي متكرر وفي هذا الأسبوع فقط، قُتل ما لا يقل عن 95 شخصًا، من بينهم 42 طفلًا، في أربع هجمات إسرائيلية هناك، وفقًا لمنظمة العفو الدولية. قالت جماعات الإغاثة والمحللون لموقع "ميدل إيست آي" إن الغزو البري الإسرائيلي المزمع لرفح سيخلق كارثة إنسانية، ويمكن أن يمهد الطريق أمام التطهير العرقي للفلسطينيين من غزة إلى سيناء المصرية.

